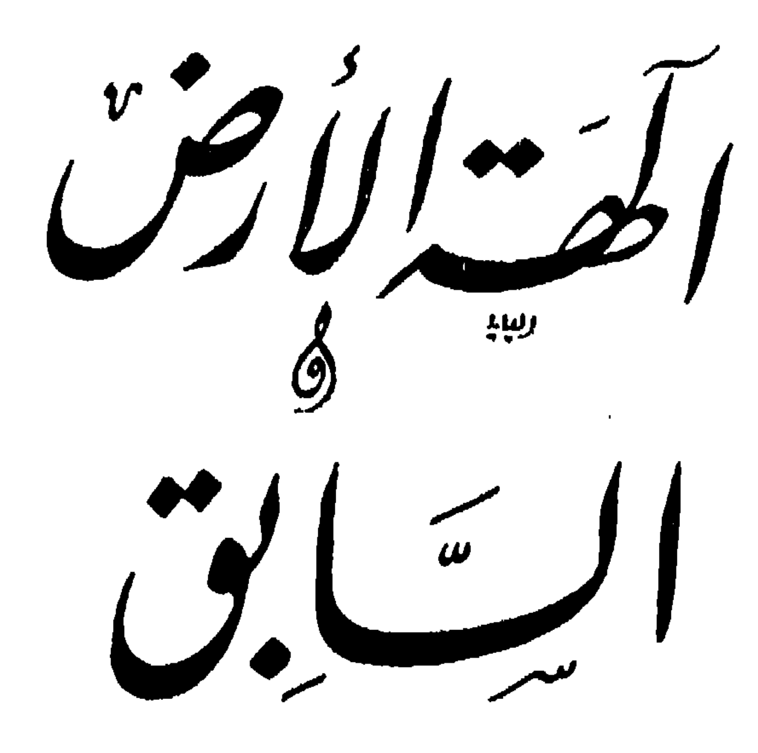

جبران خليل جبران
آلهة الأرض
و
السابق
المكتبة الثقافية
Bibliotheca Alexandrina
0201871



تاليف

جبران خليل جبران

عربه

الارشمندريت انطونيوس بشير

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

وعندما حلت ليلة العصر الثاني عشر ،

وابتلع الصمت ، الذي هو مدُّ بحر الليل ، جميع التلال ،

ظهر الآلهة الثلاثـــة ، المولودون في الارض ، وأسياد الحياة ، على الجبال .

فتراكضت الأنهار إلى أقدامهم ،

وغمرت أمواج الضباب صدورهم ،

وارتفعت رؤوسهم بجلال فوق العالم .

ثم تكلموا فتموّجت أصواتهم ، كالرعد البعيـــد فوق السهول .

الاله الأول

ان الريح تهب شرقاً ،

فأريد أن أحوّل وجهي نحو الجنوب ،

لأن الريح تملأ مشامّيّ برائحة الأشياء الميتة .

الاله الثاني

هذه رائحة الأجسام المحترقة ، وهي لذيذة وسخية ، وأنا أود أن أتنشقها .

الاله الاول

هي رائحة الميتوتة المحترقة على لهيبها الضئيل .
وهي تملأ دقائق الهواء بوفرة ،
فتزعج حواسي كما يزعجها الهواء الفاسد في الهاوية .
ولذلك أريد أن أحول وجهي الى الشمال الذي لا رائحة فيه .

الاله الثاني

انها العبير الملتهب للحياة المثمرة ،
وهي ما أود أن أتنشقه الآن وفي كل أوان .
إنما تعيش الآلهة على التضحية،
وتبرّد غلة عطشها بالدم ،
وتسكّن قلوبها بالنفوس الفتية ،
وتشدد عزائمها بالتأوهات الدائمة التي تصعّدها أرواح القاطنين في قلب الموت ،
وعروشها مبنية على رماد الأجيال .

الاله الاول

قد سئمت روحي كل ما هو كائن .
فأنا لن أمد يداً لأخلق عالماً ،
ولا لأمحو عالماً من الوجود،

انني ما كنت لأعيش لو أنني قادر أن أموت ،
لأن ثقل الأعصر كلها على كتفي .
وهدير البحر الذي لا ينقطع يستنفد كنوز نوحي .
فيا ليت لي أن أخسر المطلب الأول ،
فأزول كالشمس الزائلة .
أود لو أستطيع ان أجرد ألوهيتي من غايتها
لأنفخ أنفاس ميوتتي في الفضاء ،
فلا أكون فيما بعد .
يا ليت لي أن أحترق وامضي من ذاكرة الزمان ،
الى فراغ الأزمان ؟

الاله الثالث

أصغيا يا أخوي ، أصغيا أيها الشقيقان القديمان .
فان شاباً في ذلك الوادي
ينشد مكنونات قلبه في أذن الليل .
ان قيثارته من الذهب والأبنوس ،
وصوته من الفضة والذهب .

الاله الثاني

انني لست مغروراً بهذا المقدار لأتمنى أن لا أكون . فأنا لا أقدر أن أختار إلا أصعب الطرق ،

لأتتبع الفصول واعضد شوكة السنين ،
لأزرع البذور وأراقبها تنفذ الى قلب الأرض ،
لأدعو الزهرة من مخبئها وأسلحـها بقوة لتحضن حياتها ، ثم أعود فأقلعها عندما تضحك العاصفـة في الغابة ، لأنهض الانسان من الظلمة السّريّة ،
ولكنني أحفظ لجذوره حنينها إلى الأرض ،
لأغرس فيه العطش للحياة ، واجعل الموت حامل أقداحه ،
لأعطيه المحبة النامية بالألم ، المتساميـة بالشوق ، المتزايدة بالحنين ، والمضمحلة بالعناق الأول .
لأمنطق لياليه بأحلام الأيام العلوية ،
وأسكب في أيامه رؤى الليالي المقدسة ،
ثم أحكم على أيامه ولياليه بالمماثلة التي لا تتغير ،
لأجعل خياله كالنسر على الجبل ،
وأفكاره كعواصف البحار ،
ثم أعطيه يداً بطيئة في الحكم ،
وقدماً ثقيلة في التأمل ،
لأمنحه مسرة ليترنم أمامنا ،
وكآبة ليلتجيء الينا .
ثم أجعله وضيعاً عندما تصرخ الأرض في مجاعتها طالبـة طعاماً ،
لأرفع نفسه عالية فوق الجلد

ليصير قادراً على مذاقة غدنا ،
واحفظ جسده يتمرغ بالحمأة
لكي لا يتناسى ذكر أمسه ،
هكذا يليق بنا أن نحكم الانسان إلى منتهى الزمان ،
مقيدين النسمة التي تبدأ بصراخ أمه ،
وتنتهي بنواح أولاده .

الاله الأول

ان قلبي يحترق عطشاً ، بيد انني لا اريد ان اشرب دماً ضعيفاً لجنس ضعيف ،

لان الكأس ملطخة ،والعصير الذي فيها مر المذاق في فمي .

وانا مثلك قد عجنت الطين وصنعت منه أشكالاً متنفسة لم تلبث ان سقطت من بين اصابعي إلى الآجام والتلال .

وانا مثلك قد أنرت الأعماق المظلمة لبداءة الحياة ،
وراقبتها تزحف من الكهوف إلى الأعالي الصخرية .
انا مثلك قد احضرت الربيع ووضعت جماله ،
ليكون غواية تقبض على الشباب وترغمه على الانتاج والتكاثر .

انا مثلك قد سرت بالانسان من مزار الى مزار ،
وحولت مخاوفه الصماء من الغير المنظورات إلى إيمان مضطرب بنا من غير ان يرانا او يعرفنا .

انا مثلك قد جعلت العاصفة الهوجاء على رأسه ، لينحني أمامنا .
وزعزعت الأرض تحت قدميه حتى يصرخ الينا ، ·
ومثلك، اثرت الاوقيانوس البربري فطغا على عشجزيرته،
حتى مات في توسله الينا .
كل هذا فعلته ، واكثر منه .
وكل ما فعلته فارغ باطل .
باطلة هي اليقظة وفارغ هو النوم .
وثلاث مرات باطل وفارغ هو الحلم .

الاله الثالث

يا اخوي ، ان غابة الريحان تلك فتاة ترقص للقمر ،
وفي شعرها الف نجمة من الندى ،
وحول قدميها الف جناح .

الاله الثاني

اننا قد غرسنا الانسان ، كرمتنا .
وفلحنا الأرض في الضباب الأرجواني للفجر الأول.
وراقبنا الأغصان النحيلة نامية ،
وغذينا الأوراق الفتية على ممر الأيام والسنين التي لم تعرف الفصول .

وحصنا البراعم ضد العناصر الغضوبة ،

وحرسنا الزهرة من اعتداء الأرواح المظلمة .

والآن ، وقد أخرجت كرمتنا عنبها ،

فأنتم لا تحملونه إلى المعصرة لتملأوا الأقداح .

فأية أيدٍ أقدر من أيديكم ستجمع الثمر ؟

وأي مطلب انبل من عطشكم ينتظر الخمرة ؟

فالانسان طعام للآلهة .

ومجد الانسان يبتدىء عندما تمتص شفـــاه الآلهة المقدسة نسمته الهائمة على غير هدى .

كل ما هو بشري لا قيمة له إذا ظل بشرياً ،

إن طهارة الأطفال ، ووجد الشباب اللذيذ ،

وهوى الرجولة العزومة ، وحكمة الشيخوخة الناضجة ،

إن مجد الملوك ، ونصر المحاربين ،

وشهوة الشعراء ، وشرف الحاكمين والقديسين ،

كل هذه وكل ما تحمله في ثناياها ، هو خبز الآلهة وهي لن تكون إلا خبزاً بغير بركة ، اذا لم ترفعها الآلهة الى أفواهها .

وكما أن حبة الحنطة الصماء تتحول الى انشودة محبة عندما يبتلعها البلبل ،

هكذا الانسان إذا كان خبزاً للآلهة يتذوق الالوهية .

الاله الأول

نعم ، ان الانسان هو خبز الآلهة !
وكل ما هو من الانسان سيأتي إلى مائدة الآلهة الخالدة !
آلام الحمل ، وعذاب الولادة ،
صراخ الاطفال الذي يشق كبد الليل ،
وغم المرأة وهي تصارع النوم الذي تتوق اليه لتسكب الحياة الذاوية من ثدييها ،
الأنفاس الملتهبة الخارجة من صدور الشباب المتقطعة ، والعبرات المثقلة بأحمال الأهواء التي لا تفتح خزائنها بعد .
جباه الرجولة القاطرة عرقاً وهي تحرق الأرض الجدباء ، وتحسرات الشيخوخة الذابلة ، عندما تدعو الحياة ـ ضد إرادة الحياة — إلى القبر .
تأملوا هذا هو الانسان !
مخلوق يلده الجوع فيصير طعاماً للآلهة الجائعة ،
وكرمة تدب في تراب الأرض تحت أقدام الموت الذي لا يموت .
زهرة تزهر في ليالي الأشباح الشريرة ،
وعنب لا ينضج إلا في أيام الدموع والرعب والعار .
وأنتم على رغم هذا كله تطلبون اليّ أن آكل وأشرب ،
وترغبون إليّ أن أجلس بين الوجوه المكفنة ،

واستقي حياتي من الشفاه الصخرية ،
واقتبل خلودي من الأيدي اليابسة !

الاله الثالث

يا أخوي ، ايها الاخوان الراعبان
إن الشباب يغني في أعماق الوادي ،
ولكنّ انشودته تتصاعد إلى أعالي الجبال .
وهو يهز الغابة بصوته ، ويشق كبد السماء
ويبدد أحلام الأرض

الاله الثاني

(يصم اذنيه دائماً)
ان النحلة تطن بغلاظة في اذنيك ،
والعسل مر المذاق في فمك .
انني أود ان اعزيك ،
ولكن أنـّى السبيل إلى ذلك ؟
فليس يصغي غير الهاوية عندما تخاطب الآلهة الآلهة ،
لأن الهوّة الفاصلة بين الآلهة لا تحد ولا تقاس ،
والفضاء صامت لا ريح فيه .
ومع كل هذا اريد ان اعزيك ،
أريد أن أجعـــل دائرتك المتلبدة بالغيوم نقية صافية ،
ومع اننا متساويان بالقوة والفهم ،

فانني اريد ان أخلص لك النصح .

عندما خرجت الأرض من الفضاء ، ورأينا نحن ، ابناء البدء ، احدنا الآخر في النور الذي لا عيب فيه ، حينئذ أصعدنا الصوت الخفـــي ، المرتعش ، الأول ، الذي أنعش مجاري الهواء والماء .

ثم مشينا جنباً إلى جنب ، على سطح العالم الفتي الشيخ ، ومن صدى خطواتنا البطيئة ولد الزمـــان ، الهاً رابعاً ، فاقتفى اثار خطواتنا ، واظلم بخياله أفكارنا ورغباتنا ولم يرَ الا بنور عيوننا .

ثم جاءت الحياة إلى الأرض ، وجاءت الروح إلى الحياة ، وكانت الروح نغما مجنحاً في الوجود ، فحكمنا على الحياة والروح ، ولم يقدر أحد غيرنا على معرفة مقاييس السنين ، وموازين الأحلام السديمية في الأعوام ،حتى جاء العصر السابع فزففنا في مدّ ظهيرته البحر عروساً للشمس .

ومن مضجع هذا الزواج المقدس اخرجنا الانسان ، الذي على رغم ضعفه وسقمه ، ما برح يحمل شارة والديه .

وبواسطة الإنسان ، الذي يمشي على الأرض وعينـــاه في النجوم ، قــد وجدنا طرقاً نافذةً إلى أبعد الأصقاع النائية في الأرض ، ومن الانسان ، وهو القصبة الوضيعة النامية على المياه المظلمة ، قد صنعنا مزماراً نسكب من قلبه الفارغ صوتنا الى العالم الصامت في جميع ارجـائه . ومن الشمال الذي لا شمس

فيه ، إلى رمال الجنوب المحترقة بالشمس ، ومن ارض عرائس النيل حيث تولد الأيام ،
إلى جزائر الأخطار حيث تذبح الأيام ،
ترى الانسان الضعيف القلب ، يتشجع بغايتنا ،
فيغامر بالقيثارة والسيف .
فهو يذيع إرادتنا .
ويعلن سيادتنا ،
والمجاري التي يطؤها بأقدام محبته هي أنهار سائرة إلى بحر رغباتنا .
فنحن ، جالسين على اعالينا. نحلم احلامنا في نوم الانسان.
اننا نحث ايامه لتفارق وادي الشفق البعيد ، وتنشد كمالها على التلال .
وأيدينا تسيّر العواصف التي تجرف العالم ،
وتحمل الانسان من السلامة العقيمة إلى الجهاد المثمر ، ومن ثمت إلى الانتصار .
وفي أعيننا بصيرة نيّرة تحول نفس الانسان إلى لهيب ،
وتقوده إلى وحدة رفيعة ونبوءة ثائرة ،
ومن ثمت إلى الصلب .
فقد ولد الانسان للعبودية ،
وبالعبودية شرفه ومكافأته .
بالانسان نطلب علامة لما بنا ،

وبحياته ننشد كمال ذواتنا .

فـــاذا أخرس تراب الأرض قلب الانسان ، فأي قلبٍ يستطيع أن يرجع صدى صوتنا ؟

واذا عميت عيون الانسان بظلمة الليل . فمن يستطيع ان يرى لمعان مجدنا ؟

فماذا يجب أن نفعل بالانسان وهو ابن قلبنا الأول ، وهو صورتنا ومثالنا ؟

الاله الثالث

يا أخوي ، أيها الأخوان القديران ،
ان قدمي الراقصة الحسناء قد سكرتا بخمرة الانشاد ،
فأثارتا دقائق الهواء المرتعشة ،
وهي كالحمامة تحلق مرتفعة بجناحيها .

الاله الأول

القبرة تنادي القبرة ،
ولكن النسر يحوم فوقها .
وهي لا تتوقف لتصغي إلى الانشاد .
أنت تريد أن تعلنْ محبة الذات متكملة بعبادة الانسان .
وراضية بعبودية الانسان .
ولكن محبة ذاتي لا حدّ لها ولا قياس .

فأنا أريد أن أسمو على ما يموت مني في الأرض ،
وأتخذ لي عرشاً في السماوات .
فأمنطق الفضاء بذراعيّ ، وأحيط بالأفلاك .
وأريد أن اتخذ من المجراة قوساً ،
ومن المذنّبات سهاماً .
وباللانهاية أريد أن أحكم اللانهاية .
أما أنت فلا تريد ان تفعل هذا ولو كان في منالك .
فنسبة الانسان الى الانسان ،
هي كنسبة الآلهة إلى الآلهة .
وأنت تريد ان تحمل الى قلبي التعِبِ ،
ذكرى الأدوار المنقضية في الضباب ،
في حين أن نفسي نشدت ذاتها بين الجبال ،
وعينيّ تعقبتا صورتها في المياه الهاجعة
ولكن عروس امسي قضَت نحبها في أثناء ولادتها
فالصمت فقط يزور رحمها .
والرمال التي تقذفها الرياح ترضع ثديها .
فيا أمسي ، أيها الأمس المائت ، يا والد الوهيق المقيّدة ،
أيّ إله عظيم قبض عليك في طيرانك .
وأرغمك على الولادة في قفص ؟
وأية شمس جبارة بعثت حرارتها في بطنك لتلدني ؟
اني لا أباركك . ولكنني لا ألعنك ،
فكما أنت اثقلت كاهلي بأحمال الحياة ،

هكذا انقلبت أنا كأهل الإنسان .
بيد انني كنت أقل قساوة منك .
فأنا الخالد ، قد جعلت الانسان ظلا زائلا ،
أما انت ، المائت ، فقد خلقتني خالداً .
فيا أمسي ، أيها الأمس المائت ،
هل تعود مع الغد البعيد ؟
فأقودك الى المحاكمة ؟
وهل تستيقظ مع الفجر الثاني للحياة ،
فأمحو ذاكرتك العالقة بالأرض من الأرض ؟
أود لو أنك تقوم مع جميع الأموات القدماء .
حتى تختنق الأرض بأثمارها المريرة ،
وتنتن جميع البحار بدماء المذبوحين فيها ،
ويستنزف الويل فوق الويل كل ما في الأرض من الخصب الذاهب عبثاً .

الاله الثالث

يا أخويّ ، أيها الأخوان القديسان .
قد سمعت فتاتنا الأنشودة الساحرة ،
وهي تفتش الآن عن المرنم ؛
وهي كالخشف في دهشة مسرّتها ،
ترقص فوق الصخور والجداول
فتديرها في جميع الجهات .

ما اجمل الغبطة التي ترافق المطالب المائتة ،
والعين التي تفتحها الغاية النصف المولودة .
ما احلى الابتسامة المرتجفة لِما ستتمتع به من الغبطة الموعود بها !
أيّة زهرة تساقطت من السماء .
أي لهيب ارتفع من الجحيم ،
فحمل قلب الصمت إلى هذا الفرح والخوف المقطع الأنفاس؟
أي حلم حلمناه على الأعالي .
أيّ فكر بعثناه في الريح ،
فأيقظ غفلة الوادي
وفتح عيني الليل ؟

الاله الثاني

انك قد أعطيتَ النولَ المقدس
واعطيت الفن لحياكة الثياب
فالنول والفن سيكونان لك إلى الأبد .
وسيكون لك معهما الخيط الأسود والنور ،
ولك ايضاً الارجوان والذهب .
وأنت مع كل هذا تحوك من نفسك ثوباً .
قد نسجت يداك نفس الانسان من الهواء الحيّ والنار ،

وانت تريد الآن ان تقطع الخيط ،
وتطلق أصابعك الشعرية في الأبدية الخاملة .

الاله الاول

نعم نعم ، انني سأطلق يدي في الابدية التي لم تُسبك في قوالبها بعد ،
وفي الحقول التي لم تطأها قدمٌ سأطلق قدميّ ،
فأية مسرة لي في سماع الأناشيد التي طالما سمعها غيري،التي تلتقط ذاكرة الأذن أنغامها قبل ان يسلمها النَّفس الى أمواج الهواء ؟
ان قلبي يحنُّ إلا ما لا يستطيع ان يتصوره ،
وانا لن ارسل روحي إلا الى عـالم الغير المجهول الذي لا تقطن فيه الذاكرة ،
بربك ، لا تجربني بمجد فارغ ،
ولا تطلب لي تعزية بأحلامك أو أحلامي ،
لأن كل ما فيّ ، وكل ما في الأرض ،
وكل ما سيكون في الوجود، لا يقدر ان يستهوي نفسي.
فيا نفسي ،
ان وجهك صامت ،
وأشباح الليل نائمة في عينيك .
ولكن صمتك راعب ،
وأنت راعبة .

الاله الثالث

يا أخويّ ، أيها الاخوان الرصينان .
ان الفتاة قد وجدت المرنم .
فهي تنظر وجهه المحبوب .
وهي كالنمر تتخطر بخطوات ساحرة .
بين الدوالي والأسيجة المتموجة .
وهو ينظر إليها الآن في وسط أناشيد محبته .
أواه يا أخويّ ، أيها الاخوان الغافلان ،
هل هنالك إله آخر يتألم وقد حاك من آلامه هذا النسيج ،
القرمزيّ والأبيض ؟
أي نجم جامح قد أفلت هارباً ؟
ومن يفصل الليل عن النهار بسره ؟
ومن يضع يده على عالمنا ؟

الاله الاول

يا نفسي ، يا نفسي ،
أيتها الدائرة المحترقة التي تمنطقني بلهيبها ،
كيف استطيع أن أقود سيرك ،
وإلى أيّ فضاء أدير شوقك ؟

يا نفسي التي لا رفيق لها ،
انك في مجاعتك تصطادين ذاتك ،
وبدموعك تريدين ان تبرّدي عطشك ،
لأن الليل لا يجمع نداه في أقداحك ،
والنهار لا يحمل اليك أثماره
يا نفسي ، يا نفسي ،
أنت تحملين سفينتك إلى الشاطىء وهي مثقلة بأحمال الرغبات .
فمن أين تأتي الرياح لتملأ شراعك ؟
وأي مدٍّ فيّاض يقدر أن يحرك دفّتك ؟
ان مرساتك حاضرة وجناحيك على أهبة الطيران ،
ولكن السماء صامتة فوقك ،
والبحر الهادىء يهزأ بسكونك .
فأي رجاء ثمت لي ولك .
وأي تقلب في العوالم، أو تبدل في غايات، السماء سيطلبك.
هل يحمل رحمُ عذراء اللانهاية زَرْع منقذك ،
ذلك الذي هو أقدر من أحلامك ،
وستنقذكِ يدهُ من عبوديتك ؟

الاله الثاني

احبس صراخك اللجوج ،
وأنفاس قلبك الملتهب ،
لأن أذن اللانهاية صماء ،
وغافلة هي عين السماء .
فنحن كل ما وراء العالم وكل ما فوقه ،
وبيننا وبين الأبدية الغير المحدودة لا يوجد شيءٌ
غير أهوائنا التي لم تتشكل ، وغاياتها التي لم تتكمل .
أنت تستهوي الغير المعروف ،
والغير المعروف ، المرتدي بالضباب المتحرك ،
انما يقطن في اعماق نفسك .
نعم ، في اعماق نفسك يضطجع منقذك نائماً ،
وهو يرى في نومه ما لا تراه عيناك المستيقظتان .
هذا هو سرّ كياننا .
فهل تعرض عن جمع حصادك ،
لتلقي بذارك بعجلة في اثلام أحلامك ؟
وعلام تبسط سُحُبك في الحقول الخربة .
في حين ان قطيعك يفتش عنك ،
وأنت عبثاً تجمع في خيالك ؟
فتأنّ ، وامعن نظرك في العالم .
انظر إلى أولاد محبتك الغير المفطومين .

ان الارض هي مسكنك ، والأرض هي عرشك ،
وفوق أرفع آمال الانسان تقبض يدك على قسمته .
أنت لا تريد أن تتركه –
وهو المجاهد أن يصل اليك بمسراته وآلامه .
وأنت لا تحول عينيك عن الحاجة التي في عينيه .

الاله الأول

هل يضم الفجر قلب الليل إلى صدره ؟
أم هل يعبأ البحر بأجسام موتاه ؟
كالفجر تنهض نفسي في اعماقي –
عارية غير متحيرة .
وكالبحر الذي لا يستريح –
يطرح قلبي عنه النفاية الزائلة من الأرض والانسان :
انني لن أعلق بكل من يعلق بي .
ولكنني اريد ان اسمو إلى ذلك المتسامي فوق مـا تصل
اليه قوتي .

الاله الثالث

يا اخوي ، تأملا أيها الأخوان ،
ان روحين سائرتين الى النجوم قد اجتمعتا في الجوّ للحساب.
وهما تنظران الواحدة الى الأخرى بصمت وسكون .
ان المرنّم قد انقطع عن الغناء ،

ولكن حلقه الذي حرقته الشمس يرتعش بالأناشيد ،
ولرفيقته الراقصة قد سكن الرقص في أعضائها ـ
بيد انه لم ينم .
يا أخويّ ، أيها الأخوان الغريبان ،
ان الليل يشتد ادلهاماً ،
والبدر يزداد اشراقاً ،
وبين الغابة والبحر
تصرخ المحبة بأعلى الصوت تدعوكما وتدعوني الى قلبها .

الاله الثاني

يا لتفاهة الكيان ، والنهوض ، والاحتراق أمـام الشمس الملتهبة ، والحياة والمراقبة لليالي الاحياء ـ
كما تراقبنا عين الجوزاء !
يا لحقارة مجابهة الرياح الأربعة برأس مكلل رفيـع ،
وشفاء أسقام الناس بأنفاس لا مد في بحرها ؟
ان الحيام جالس يخبط خبط عشواء أمام نوله ،
والخزاف يدير دولابه بعدم اكتراث ،
أمـا نحن ، الذين لا ينامون ، ويعرفون كل شيء ،
فقد أعتقنا من ظلمة الظن والتخمين .
فنحن لا نتردد ولا نمعن الفكر والنظر .
لأننا قد سمونا رفعة على جميـع الأسئلة القلقة .

فلنعش مطمئنين ، ولنطلق طيور أحلامنا من أقفاصها .
وكالأنهار فلنسكب في البحر —
من غير أن تديرنا حافات الصخور ،
فاذا بلغنا قلب اللجة ، وابتلعتنا أمواجها ،
انقطعنا عن المجادلة والتأمل في مصير الغد ، إلى الأبد .

الاله الاول

أفٍّ من ألم هذا التكهّن الذي لا ينقطع ،
وهذا السهر السائر بالنهار إلى الشفق ،
والذاهب بالليل إلى الفجر ،
أفٍّ من هذا المدّ الذي يحملنا إلى الذكرى الدائمة ،
والنسيان الدائم ،
وهذا الزرع المتواصل لبذار الاقدار التي لا تحصد منهـــا غير الآمال ،
وهذا الرفع الغير المتغير للذات من التراب إلى الضباب ،
لتحنّ إلى التراب ، ثم تسقط بحنينها إلى التراب ،
ثم لا يلبث أن يتضاعف حنينها فتنهض ناشدة الضباب ثانيـــة .
أفٍّ من هذا القياس الذي يغير أوانه للزمـــان الذي لا يتغير .

وهل تحتاج نفسي الى أن تصير بحراً ترعج مجاريه بعضها بعضاً الى الأبد ،

أو جوّاً تتحول فيه الرياح المتحاربة الى زوبعة ؟

لو كنت رجلاً ، لو كنت عبيراً أعمى ، —

لكان في طوقي الصبر على كل هذا .

أو لو كنت الاله الأعلى، الذي يملأ فراغ الانسان والآلهة، لكنت اكتفي بذاتي .

ولكن أنا وأنت لسنا بشراً ،

ولا نحن بالعليّ الذي فوقنا .

ولكننا أشفـاق (جمع شَفق) لا تنقطع عن الظهور والزوال من أفق الى أفق .

وآلهة ، نمسك بالعالم ويمسك العالم بنا .

وقد قضى علينا أن ننفخ بالأبواق ،

ولكن الروح النافخة والموسيقى الخارجة من أبواقنا ليست منا بل تأتي من فوق .

لذلك تراني أرغب في الثورة .

اريد ان استنزف ما بي حتى أصير فارغاً .

أريد أن أبتعد عن بصيرتك ،

أريد أن أختفي من ذاكرة هذا الشاب الصامت ، الذي هو أخونا الأصغر ، الجالس قريبـاً منا يتأمل في ذلك الوادي ،

ومع أن شفتيه تتحركان ، فهو لا ينطق بكلمة .

الاله الثالث

اني أتكلم ، أيها الاخوان الغافلان .
اني أتكلم بالحقيقة ،
ولكنكما لا تسمعان غير حديثكما .
أطلب إليكما أن تنظرا مجدكما ومجدي ،
بيد انكما تتحولان ، وتطبقان أجفانكما ،
وتهزّان عرشيكما .
فيا أيها الحاكمان الراغبان في السيادة على العالم العلوي والعالم السفلي ،
أيها الإلاهان الاثانيّان اللذان لا ينقطع أمسهما عن حسد غده ،
أيها التّعِبَان من أثقال ذاتكما ، المهدّئان حدة غضبكما بالكلام ، والضاربان محاجرنا بالصواعق !
ليست مخاصمتكما سوى صوت القيثارة القديمة .
التي نسيت أصابع القدير نصف الضرب على أوتارها —
ذلك الذي الجوزاءُ عودُهُ والثريا صنُوجُه ،
وهو حتى في هذه الساعة التي تتمتمان وتدمدمان فيها يضرب على عوده وصنوجه ،
فألتمس منكما أن تصغيا إلى أنشودته .
انظرا ، رجلاً وامرأة ،
لهيباً مع لهيب ،

يذوبان وجداً وهياماً .
جذور ترضع ثدي الأرض الارجواني ،
وزهور من نار على صدر السماء .
ونحن الثدي الأرجواني ،
ونحن السماء الباقية .
ان نفسنا التي هي نفس الحياة ، نفسكما ونفسي ،
انما تقيم الليلة في حلقٍ ملتهب ،
مجللة جسم فتاةٍ طاهرة ، بثوب من الأمواج الثائرة .
ان صولجانيكما لن يغير هذه القسمة المعدة لنا ،
وهمومكما هي الطموح بعينه .
لأن هـــذا جميعه سيمحى من الوجود في هوى الرجل والمرأة .

الاله الثاني

وما شأن هذه المحبة بين الرجل والمرأة ؟
تأمل كيف ترقص الريح الشرقية بقدميها الرشيقتين ،
وتنهض الريح الغربية مترنمة بأنشودته .
انظر إلى محجتنا المقدسة جالسة على عرشها الآن ،
باستسلام روح تغني الى جسد يرقص .

الاله الأول

انني لن أحوّل عيني الى وهم الارض ،

ولن أنظر إلى اولادها في المهم البطيء الذي تسميه محبة .
وما هي المحبة ؟
سوى طبل مُقَنَّع يقود موكباً طويلاً من الريب اللذيذ.
إلى شكل آخر من الألم البطيء ؟
إنني لا أريد أن أنظر إلى هذا الوهم
وأي شيء تراه هناك —
إلا رجـــل وامرأة في الغابة التي نَمَتْ لتصطادهما في فخاخها ، وتعلمها انكار الذات —
وولادة المخلوقات لغدنا الذي لم يولد بعد ؟

الاله الثالث

أفٍّ من الألم الذي تجلبه المعرفة .
والقناع المظـــلم الذي وضعه تفحصنا وتساؤلنا على وجه العالم ، والاستنهاد الذي نوجهه في كل ساعة للصبر البشري !
فنحن نضع تحت حجرٍ شكلاً من الشمع
ثم نقول انه شكل من الطين ،
فليجد في الطين آخرته .
ونمسك بأيدينا لهيباً أبيض ،
ثم نقول في قلوبنا ،
انه عبير ذواتنا يرجع إلينا ،
ونسمة نسمتنا الفالتة منا ،

وبعد ذلك نعمد مفتشين في أيدينـــا وشفاهنا عن المزيد من العبير .

فيا اخوتي ، آلهة الأرض

اننا وان كنا في أعلى الجبل ،

فنحن ما زلنا نسير إلى الأرض —

بواسطة الانسان الراغب في الساعـــات الذهبية التي في نصيب أخيه الانسان .

فهل تسلب حكمتنا الجمال من عينيه ؟

أم هل تخضع مقاييسنا أهواءه فتحملنا إلى السكون ، أو تقودها إلى مستوى أهوائنا ؟

ماذا تقدر أن تصنع جيوش أفكاركم —

حيث تجتمع المحبة بجيوشها الجرارة ؟

ألا ان الذين غلبتهم المحبة .

وسارت بمواكبها فوق أجسادهم من البحر إلى الجبل .

ومن الجبل إلى البحر ،

يقفون الآن ، وفي كل أوان ، متعانقين بحياء ووقار .

باجتماع أوراق زهور محبتهم يتنشقون عبير الحياة المقدس.

وباتحاد نفوسهم يجدون نفس الحياة ،

وعلى اجفانهم ترتسم صلاة مرتفعة إلينا .

المحبة هي ليل منحن بوقار تحت خيمة مقدسة ،

وسماء قد تحولت إلى غابة ،

بل هي نجميع النجوم قد تحولت إلى حباحب .

نحن بالحقيقة كل ما وراء العالم وكل ما فوقه .
ولكن المحبة أبعد من أن تصل إليها أسئلتنا —
واسمى من أن تبلغ اليها انشودتنا .

الاله الثاني

أتطلب دائرة بعيدة ؟
ولا تهتم بهذا الكوكب الذي غرست فيه عزيمتك ؟
ليس في الفضاء مركز إلا حيث تزف النفس إلى النفس ،
ويكون الجمال شاهداً وكاهناً .
فتأمل وانظر الجمال مبعثراً حول أقوامنا ،
تأمل جيداً كيف يملأ الجمال أيدينا لينزل العار بشفاهنا .
ان الأبعد هو الأقرب .
وحيث يكون الجمال ، يكون كل شيء .
أواه أيها الأخ الحالم الرفيع ،
ارجع إلينا من عهد أرض الكآبة القاتمة !
حرّر قدميك من اللامكان واللازمان ،
واقطن معنا في هذه الطمأنينة الآمنة —
التي ابتنتها يداك وأيدينا حجراً فوق حجر .
انزع عنك ثوب خفقان قلبك ،
وكن رفيقاً لنا في السيادة على هذه الارض الفتية ، الحارة بجلال خضرتها .

الاله الاول

أيها المذبح الخالد !

هل تريد بالحقيقة إلها لضحيتك في هذه الليلة ؟
إذن فأنا قادم ، وبقدومي أقرب محبتي وألمي .
هنالك تقف الراقصة ، التي نُحِتت من شوقنا القديم ،
والمرنم يصيح بأناشيدي في أمواج الريح .
وفي ذلك الرقص ، وفي ذلك الانشاد —
يموت إله قدير في أعماقي .
ان إله قلبي القاطن وراء ضلوع بشريتي ينادي إله قلبي المقيم في الهواء .
والهاوية البشرية التي طالما عطلت عليّ راحتي تصرخ إلى الالوهية .
والجمال الذي نشدناه منذ البدء يصرخ إلى الألوهية .
وفي اصغائي قد قست هذا الصراخ ،
وها أنا ألقي سلاحي .
فالجمال طريق يؤدي إلى الذات المقتولة بيد ذاتها .
فاضرب أوتارك .
انني مستعدّ للسير على الطريق .
فهي تمتد إلى فجر آخر .

الاله الثالث

قد انتصرت المحبة !
سواء أكانت المحبة بياضاً ناصعاً أو خضرة زاهية بجانب بحيرة ، أو كانت جلالاً وفخاراً في القباب الرفيعة ، أو كانت

في بستان حافل بالناس ، أو في صحراء لم تطأهـــا قدم الانسان ،
فالمحبة هي ربنا ومعلمنا في كل حال .
فهي ليست بالشهوة الزائلة في الجسد .
ولا هي فتات الرغبة المتساقط من مصارعـــة الرغبة للذات ،
كلا ، ولا هي بالجسد الحامل سلاحه على الروح .
لأن المحبة لا تعرف الثورة .
ولكنها تهجر طريق الأقدار القديمة لتسير إلى الغابـــة المقدسة ،
لترقص وتترنم بأناشيد أسرارها في آذان الأبدية .
المحبة شباب قد تحطمت قيوده ،
ورجولة قد تحررت من عناء الأرض ،
وأنوثة حارة بلهيب مقدس ، مشرقة بنور سماء أبهى من سمائنا .
المحبة ، ضحك بعيد في أعماق الروح .
المحبة ، حملة قديرة تسير بك إلى يقظتك .
المحبة فجر جديد على الأرض ،
ويوم لم تصل اليه لا عينك ولا عيني ،
ولكن المحبة قد وصلت إلى قدس أقداسه بقلبها الأعظم .
يا أخويّ ، يا أخويّ ،
ان العروس قادمة من قلب الفجر

لتلاقي عروسها القادم من الغروب .
وسيكون عرس في الوادي ،
ويوم اعظم من أن تدون حوادثه .

الاله الثاني

هكذا كان منذ أطلق الصباح الاول السهول
الى التلال والاودية ،
وهكذا سيكون إلى بعد المساء الاخير .
ان جذورنا قد انبتت الاغصان الراقصة في الوادي ،
ونحن أزهار عبير الانشودة المرتفعة إلى الاعالي .
فالخالد والمائت نهران توأمان يناديان البحر بغير انقطاع
وليس بين النداء والنداء فراغ قط ، إلا في الاذن .
فالزمان يزيد اصغاءنا ثقة ،
ويضيف إلى رغباته .
ولا يخرس الصوت في المائت الغير المرتاب
أما نحن فقد تسامينا على الشكوك .
فالانسان هو ابن قلبنا الاصغر .
الانسان إله يرتفع الى الوهيته ببطء شديد ،
وبين مسرته وألمه ننام ونحلم أحلامنا .

الاله الاول

دع المرنم يترنم ، والراقصة تحرك قدميها .
ودعني اطمئن هنيهة .

ان نفسي تريد ان تستريح الليلة .

فقد يغلبني النوم ، وفي نومي أري عالمـــاً أكثر نوراً من هذا العالم ،

فتأتي مخلوقات أبهى من مخلوقاتنا فلسترق طريقهـــا الى فكري .

الاله الثالث

انني أنهض الآن فاجرد نفسي من حدود الزمان والمكان ،

وأرقص في ذلك الحقل الذي لم تطأه قدما انسان ،

وستتحرك قدما الراقصة مع قدمي ،

وسأترنم في ذلك الملإ الاعلى ،

وسيختلج صوت بشري مع صوتي .

سنعبر الى الشفق البعيد ،

فقد نستيقظ في فجر عالم آخر .

ولكن المحبة باقية

ولن تمحى اثار أصابعها

ان الكور المقدس متأجج بالنار ،

وكل شعلة تصعد منه هي شمس محترقة .

فالاجدر والاحكم لمصلحتنا ـ

أن نفتش عـن قرنة صغيرة فننام في الوهيتنا الارضية

تاركين امـر قيادتنا الى اليوم المقبل ،الى المحبـة البشرية الضعيفة .

السابق

أمثاله وأشعاره

وضعه بالإنكليزية فقيد الشعر والفن

جبران خليل جبران

تعريب

الارشمندريت انطونيوس بشير

أنت سابق نفسك

أنت سابق نفسك يا صاح ، ومـا الأبراج التي أقمتها في حياتك سوى أساس لذاتك الجبارة . وهذه الذات في حينها ستكون أساساً لغيرها .

وأنا مثلك سابق نفسي ، لان الظل المنبسط أمـامي عند شروق الشمس سيتقلص تحت قدمي عند الظهيرة . وسيعقب هذا الشروق شروق آخر ، فيحدث ظلاً ثانياً أمامي ، ولكن هذا الظل عينه سيتقلص تحت قدمي أيضاً في ظهيرة أخرى .

منذ البدء ونحن سابقو نفوسنا ، وسنبقى سابقي نفوسنا إلى الابد . وليس ما حشدنا ونحشد في حياتنا سوى بذور نعدّها لحقول لم تُفلح بعد . نحن الحقول ونحن الزارعون . نحن الاثمار ونحن المستثمرون .

عندما كنتَ يا صاح فكرةً هائمةً في الضباب ، كنت هنالك فكرة هائمة مثلك ، فنشدتك ، ونشدتني ، فكانت من تشوقاتنا الاحلام ، والاحلام كانت زماناً بلا قيود ، والأحلام كانت فضاءً بلا حدود .

وعندما كنتَ كلمةً صامتةً بين شفتي الحياة المرتعشتين كنتُ أنا مثلك هنالك كلمة صامتة ؛ وما تلفظت الحياة بنا حتى برزنا الى الوجود وقلبانا يخفقان بتذكارات الامس والحنين الى الغد . وما الأمس سوى الموت مطروداً ، ولا الغد سوى الميلاد مقصوداً .

وها نحن الآن في يدي الله ، فأنت شمس منيرة في يمناه ، وأنا أرض مستنيرة في يسراه ، ولكن قوتك على الانارة ليست بأفضل من قوتي على الاستنارة .

وما نحن ، الشمس والارض ، إلا بداءةً لشمس أعظم وأرض أعظم ، وسنبقى بداءة الى الابد .

أنت سابق نفسك أيها الغريب العابر بباب حديقتي ، وأنا مثلك سابق نفسي ، ولو كنت أجلس في أظلال أشجاري وأبدو ساكناً هادئاً .

البُهـــلول

جـاء في قديم الزمان رجل من البادية الى مدينة الشريعة العظيمة ، وكان بهلولاً خيالياً . ولم يكن له من متاع سوى ثوبه وعصاه

فكان يطوف في شوارع المدينـــة ويتأمل في هياكلها وأبراجها وقصورها باعجاب واجلال ؛ لأن مدينة الشريعة كانت غايةً في الجمال .

وكان بين الآونة والأخرى يخاطب العابرين به مستفهماً عن مدينتهم وغرائبها ، فـلم يفهموا لغته ، كما انه لم يفهم لغة أحدٍ منهم .

وعند انتصاف النهار وقف أمام فندق فسيح الارجاء ، بديع الهندسة والاتقان ، وكان الناس يدخلون اليه ويخرجون منه من غير اعتراض

فقال البهلول في ذاته : « لا شك ان هذا مزار مقدس » ودخل مع الداخلين .

وشدّ مـا كانت حيرته عندما وجد نفسه في بهوٍ عظيم ، وكبراء القوم ، من رجال ونساء ، جالسون الى كثير من الموائد الانيقة ، يأكلون ويشربون ، والموسيقيون يشنفون آذانهم بأطرب العزف والغناء .

فقال البهلول إذ ذاك في ذاته : « قد ضللت ، فما هذه بالعبادة التي توهمت ، بل هذه مأدبة أعدها الامير لشعبه تذكاراً لحادث جلل » .

وفي تلك الدقيقة دنا منه رجل ، خُيل اليه انه عبد الامير ، وسأله ان يجلس مع الجالسين ؛ فجلس . فقدمت اليه اللحوم ، والخمور ، والحلوى ، افخرهـا وأشهاها ، فأكل هنيئاً وشرب مريئاً .

وعندما بلغ كفافه همّ بالانصراف ، ولكنه ما وصل إلى الباب حتى دنا منه رجل بادن متأنق اللباس فـأوقفه . فقال البهلول في نفسه : « لا شك ان هذا هـو الامير بعينه » ، فانحنى امامه وحياه بإحترام وشكره بلغة قبيلته .

أمـا الرجل البادن فخاطبه بلغة المدينة ، قائلاً له : « يا سيدي انك لم تدفع بعد ثمن غذائك » .

فلم يفهم البهلول شيئاً ، ولكنه شكره ثانية من صميم قلبه . فتأمله الرجل البادن جيداً ، وبعد أن أمعن النظر في وجهه ملياً ، أدرك انه غريب عن المدينة ، وعرف من ثيابه الرثة انه فقير الحال وليس له مـا يدفعه ثمن غذائه . فصفق منادياً ، فجاء على الفور أربعة من حراس المدينة ومثلوا بين يديه . فقص عليهم قصة البهلول . فالقوا القبض عليه في الحـال ، ومشوا به اثنين اثنين الى جانبيه . أمـا البهلول فكان يتأمل في ملابسهم المزركشة ، وهو يكاد يطير

فرحاً قائلاً في سره : « لا شك في ان هؤلاء من أشراف المدينة » .

فسار الحراس به إلى أن بلغوا دار القضاء ، فدخلوا الى قاعة المحاكمة . فرأى البهلول أمامه ، في صدر تلك القاعة ، رجلاً جليلاً ، جالساً على منصة عالية ، تجلله المهابة ، وتزيده لحيته البيضاء المسترسلة على صدره هيبةً ووقاراً . فخُيل اليه انه الملك بعينه ، وطارت نفسه فرحاً لمثوله أمامه .

ثم بسط الحراس دعواهم إلى القاضي ، فعيّن القاضي محاميين ، واحداً ليدعي على البهلول ، وآخر ليتولى الدفاع عنه ، فنهض المحاميان الواحد تلو الآخر ، وأدلى كلٌّ بحججه .

أما البهلول فظن انهما يرحبان به باسم الملك ، فامتلأ قلبه بعواطف المنة ، ومعرفة الجميل للملك ، وللأمير ، على كل ما جرى له .

وعند انتهاء المحاكمة ، حكم القاضي بما يأتي على البهلول : « يجب أن تكتب جريمته على لوحة ، وتعلق على صدره ، ثم يركب حصاناً عارياً : ويطاف به في المدينة ، ويسير المزمرون والمطبلون أمامه » .

فنُفّذ الحكم في الحال ، وأركب البهلول حصاناً عارياً ،

وطيف به في شوارع المدينة ، وسار المزمّرون والمطبّلون أمامه. وكان سكان المدينة يتراكضون على سماع الأصوات ، فينظرون اليه وهو على تلك الحالة ، ويغربون في الضحك أفراداً وجماعات . وكان الأولاد يركضون وراءه من شارع إلى شارع زرافات زرافات .

أما البهلول فكان ينظر اليهم بعينين مشرقتين فرحاً ، والدهش آخذ منه مأخذه ، لأنه كان يعتقد ، ان اللوحة المعلقة على صدره ، انما هي وسامٌ قدمه له الملك عربون بركته ورضاه عن زيارته ، وان ذلك الموكب ما سارَ إلا احتفاء بحضرته .

وحدث أنه فيما هو راكب والجمع يحشده ، رأى بينهم بدوياً من قبيلته ، فاختلج قلبه طرباً ، وهتف به بأعلى صوته قائلا : « بربّك يا صاح ! أين نحن الآن ؟ أليست هذه المدينة التي يسميها شيوخنا مدينة رغائب القلب ، وشعبها الاريحيون الفياضون ، الذين يحتفون بعابر السبيل في قصورهم ، ويرافقه امراؤهم ، ويشرف ملكهم صدره بالنياشين ، فاتحاً له أبواب مدينته الهابطة من السماء ؟ »

فلم يقل البدوي الثاني كلمة قط ، ولكنه تبسّم وهز رأسه .

أما الموكب فاستمر في سيره . وكان وجه البهلول مرتفعاً أبداً والنور يفيض من عينيه .

المحبة

يقولون ان ابن آوى يشرب من الجدول الواحد الذي يشرب منه الأسد .

ويقولون إن النسر والشوحة ينقدان الجيفة الواحدة وهما متفقان متسالمان .

فيا أيتها المحبة العادلة ،

يا من كبحت جماح رغائبي بيدك القديرة ،

وحولت مجاعتي وعطشي إلى إباء وشمم ،

لا تأذني للقويّ العزوم فيّ ، أن يأكل الخبز ، أو يشرب الخمر ، اللذين يستهويان ذاتي الضعيفة .

ذريني بالأحرى فأقضي جوعـــاً ، بل دعي قلبي يتلهب عطشاً ،

واتركيني أموت وأفنى ، قبل أن أمدّ يدي لقدح لم تملئيه أو كأس لم تباركيه .

الملك الناسك

خُبّرت ان فتى يعيش في غابة بين الجبال ، وانه كان فيما مضى ملكاً على بلاد واسعة الأرجاء في عبر النهرين . وقيل لي أيضاً ، ان هذا الفتى قد تخلّى بملء اختياره ، عن عرشه وعن أرض أجداده ، وجاء ليستوطن القفار .

فقلت في نفسي : لأسعَين الى ذلك الرجل سعياً ، وأقف على ما في قلبه من الأسرار ، لأن من يتنازل عن الملك فهو بلا شك اعظمُ من المُلك ! ! !

فذهبت على الفور إلى الغابة حيثما كان قاطناً . فوجدته جالساً في ظلال سروة بيضاء ، وبيده قصبة كان ممسكاً بها كأنما هي صولجانه . فحييته تحية الملوك . وبعد أن ردّ التحية التفت اليّ وقال بلطف : « ما عساك تبتغي في هذا الغاب الأعزل يا صاحبي ؟ أجئت تنشد ذاتاً ضائعة في الأظلال الخضراء ، أم هي عودة إلى مسقط رأسك عند انقضاء شغل النهار ؟ »

فأجبته قائلاً : « إنني ما نشدتُ إلاك ، ولا شاقني إلا الوقوف على ما حدا بك إلى استبدال مملكتك الكبيرة بهذه الغابة الحقيرة ؟ »

فقال : « وجيزةٌ هي قصتي ، فقــد انطفأت فقاقيع غروري فجأةً . واليك حكايتي :

بينما كنت جالساً الى نافذة في قصري ، كان وزيري يتمشى مع سفير أجنبي في حديقتي . وعندما صارا على مقربة من نافذتي ، سمعتُ الوزير يتكلم عن نفسه قائلاً : « أنا مثل الملك أتعطش للخمرة المعتقة ، وأعشق جميع ضروب المقامرة ، ويثور بي ثائر الغضب كسيدي الملــك » . ثم توارى الوزير والسفير بين الأشجار . ولكنهما مــا لبثا أن عادا بعد برهة ، وإذا بالوزير يتكلم عني في هذه المرة قائلا : « ان سيدي الملك مثلي يُحسن الرماية ، ويتعشق الألحان ، وهو مثلي يستحم ثلاثاً في النهار » .

وسكتَ لحظة ثم زاد قائلاً : « في عشيَّةِ ذلك اليوم تركت بلاطي ، ولا شيء معي سوى عباءتي ، لاني لم أشأ بعد ذلك أن أكون ملكاً على قوم يدعون نقائصي لأنفسهم ويعزون فضائلهم إليَّ » .

فقلت له : « ما أغرب قصتك ، وما أعجب أمرَكَ ! »

فأجابني قائلا : « ليس هنالك من غرابــة يا صاحبي ، فقد قرعتَ أبواب سكينتي طامعاً منها بالكثير ، فلم يكن لــك منها سوى اليسير . بربك قــل لي ، مَنْ لا يستبدل

مملكةً بغابةٍ تترنم فيها الفصول ، وترقص طروبةً أبداً ؟ كثيرون هم الذين تركوا ممالكهم ليستبدلوا بها ادنى مراتب الوحدة ، والتمتع بحياة العزلة السعيدة . وكم هنالك من نسور هبطت من جوها الأعلى ، لتعيش مع المناجذ في انفاقها الصامتة فتتفهم أسرار الغبراء ! بل ما أكثر الذين يعتزلون مملكة الاحلام لئلا يظهروا للناس انهم بعيدون عمن لا أحلام في نفوسهم ؛ والذين يعتزلون مملكة العُري ، ساترين عُرية نفوسهم ، حتى لا يستحي الأحرار من النظر الى الحق عارياً والتأمل في الجمال سافراً . وأعظم من هؤلاء جميعهم ، ذاك الذي يعتزل مملكة الحزن ، لكي لا يظهر للناس معجباً مفاخراً بكآبته » .

ثم نهض متوكئاً على قصبته وقال : « ارجع الآن الى المدينة العظمى ، وقف بأبوابها مراقباً جميع الداخلين اليها والخارجين منها . واعن بأن تجدَ الرجل الذي على رغم انه وُلِدَ ملكاً فهو بدون مملكة ؛ والرجل الذي على رغم انه مَسودٌ بجسده فهو سائد بروحه — ولكنه لا يدري بذلك ، ولا رعاياه يدرون بسيادته — والرجل الذي يبدو للعيان حاكماً ولكنه في الحقيقة عبد لعبيد عبيده » . . .

وبعد ان فرغ من كلامه ، نظر اليَّ ، فلاحت لي منه ابتسامة خلتها الفَ فجرٍ وفجر .

ثم تحول عني متغلغلا في قلب الغابة .

أما أنا فرجعت الى المدينـــة ، ووقفت بأبوابها أراقب العابرين بي ، على نحو ما قال لي . وما أكثر الملوك الذين مرت أظلالهم فوقي ، منذ ذلك اليوم حتى الساعـة ، وأقل الرعايا الذين مرّ فوقهم ظلي .

بنت الأسد

وقف أربعة عبيد يروحون بمراوحهم للملكة حيزبون كانت نائمة على عرشها تغط غطيطاً غليظا . وكان في حضن الملكة هرة متكئة تموء وهي تنظر الى العبيد نظرة كره واشمئزاز .

فقال العبد الأول لرفقائه: ما أبشع هذه الحيزبون نائمة ، انظروا كيف تراخت شفتاهـا ، وهي تصعد أنفاسها كأنما الشيطان آخذ بخناقها . »

فموّت الهرة قائلة : « ان بشاعتها في رقدتها ليست جزءاً من بشاعتكم في عبوديتكم وأنتم مستيقظون . »

ثم قال العبد الثاني : « ومن الغريب أن النوم لم يلطف ملامح وجهها ، بل زادها تجعداً ، فهي ولا شك حالمة حلماً شريراً راعباً . »

فموّت الهرة قائلة لهم : « حبذا لو تنامون أنتم وتحلمون بحريتكم . »

فقال العبد الثالث لرفقائه أيضاً : « يلوح لي انها ترى في منامها موكب جميع ضحاياها الذين قتلتهم ظلماً وعدواناً . »

فموّت الهرة قائلة : « نعم فهي ترى مواكب أجدادكم وأحفادكم . »

ثم قال العبد الرابع : « مـــا أغباكم تتحدثون عن هذه الملكة وهي نائمة ، ومـــاذا يجديكم الحديث نفعاً أو يجديني ؟ ألعلّه يخفف عني نصيبي في وقوفي وعنائي في ترويحي لها ؟ »

فقالت الهرة وهي تموّي : « أجل ، انكم ستروحون الى دهر الداهرين ، لأنه كما على الأرض كذلك في السماء » .

وفي تلك اللحظة تحركت الملكة في نومها ، فسقط تاجُها على الارض . فقال واحدٌ من العبيد : «ان في ذلك لشؤماً ! ».

فموّت الهرة وقالت : « مصائب قوم عند قوم فوائد . »

فقال العبد الثاني : « ماذا يحلّ بنا اذا أفاقت الآن من نومها ورأت تاجها ساقطاً على الارض والله انهـــا تذبحنا جميعاً ! »

فموّت الهرة قائلةً : « قد كانت تذبحكم منذ ميلادكم أيهـا الاغبياءُ وأنتم لا تعلمون » .

وقال العبدُ الثالث : « انها ولا شك تذبحنا . وتعتبر انها بعملها هذا انما تقرب عبادة لآلهتها . »

فموّت الهرة قائلةً : « لا يُضحّى للآلهة إلا الضعفاء » .

أما العبد الرابع فأسكت رفقاءَه عن الكلام ، والتقط التاج بتأنٍّ ، ووضعه على رأس الملكة من غير أن يوقظها .

فوّت الهرة وقالت بصوت عـال : « الحق أقول لكم ، انه لا يلتقط التيجان المدحرجة، سوى العبيد » .

وبعد هنيهة استيقظت الملكة، وتلفتت حواليها متثائبة ، ثم قالت لعبيدها : يخيّل إليّ اني حلمت باني رأيت أربـع حشرات يطاردها عقرب حول جذع سنديانة جبارة . قبّحه الله من حلم مزعج . »

وأطبقت عينيها فنامت ثانية بعد ان ملأت القاعـة بغطيطها . فطفق العبيد الاربعة يروحون لهـا على جاري عادتهم .

أما الهرة فوّت قائلة لهم : « روّحوا ، روّحوا أيهـا العميان والاغبياء، فما أنتم تروحون الا ناراً تلتهم وجودكم ! »



الظلم مرتعه وخيم

هذه أغنية التنــّينة التي تحرس كهوف البحر السبعة :

« سيأتي ڤريني راكباً على الأمواج ،

« وسيملأ الأرض رعباً بهديره العجاج ،

« وستندلع نيران منخريه في أقاصي الفضاء .

« عند كسوف القمر سأزف اليه ،

«وعند خسوف الشمس سألدُ جورجيوس آخر فيذبحني »

هذه أغنية التنينة التي تحرس كهوف البحر السبعة .



(١) كان عند قدماء الاشوريين اله له رأس انسان وجسم ثور واجنحة طائر ، وكانوا يرمزون برأسه عن الفكر، وبجسمه عن العزم ، وبأجنحته عن الخيال . وهذا ما عناه المؤلف بقوله : « قاعة الثيران المجنحة » .

القديس

زرت في حداثتي قديساً في صومعته الهادئة القائمة بين التلال ؛ وفيما كنا نبحث ماهية الفضيلة ، أطل علينا لص وهو يتمرج على الجانبين فوق الروابي ، والتعب قد أعياه . وعندما وصل إلى الصومعة ، جثا على ركبتيه امام القديس ، وقال له : أيها القديس الشفيق ، قد جئتك طالباً تعزية ، فان آثامي قد تعالت فوق رأسي . »

فأجابه القديس قائلاً : « يا ابني ، ان آثامي أنا أيضاً قد تعالت فوق رأسي . »

فقال له اللص : « عفوك يا سيدي ! فأنا سارق ، وقاطع طريق ، ويستحيل ان تكون مثلي . »

فأجابه القديس : انك واهم يا ابني ، فانني بالحقيقة مثلك سارق وقاطع طريق .

فقال له اللص : « ماذا تقول ياسيدي ؟ فانا قاتل ، ودماء الكثيرين من الناس تصرخ في أذني . »

فأجابه القديس قائلا : « وأنا أيضاً قاتل يا ابني ، وفي أذني تصرخ دماء الكثيرين . »

فقال له اللص : «يا سيدي ، أنا قد ارتكبت شروراً لا تحصى ، وجرائم لا عداد لها ، فكيف تساوي نفسك بي وأنت رجل الله البارّ ؟ » .

فأجابه القديس وقال : « لو انك عرفتَ كثرة شروري لما ذكرت شرورك » .

فانتصب اللص إذ ذاك ، وحدق بالقديس طويلاً ، وملءُ عينيه دهشة وغرابة ، ومضى من غير أن ينبس ببنت شفة .

أما أنا فكنت صامتاً إلى تلك الدقيقة . فالتفتّ آنئذ الى القديس ، وسألته قائلاً : « ما دعاك الى أن تنسب لنفسك شروراً لم ترتكبها قط يا سيدي ؟ ألا ترى ، أن هذا الرجل ، قد مضى ولم يعد بعد من المصدقين بدعوتك والمؤمنين ببشارتك ! »

فأجاب القديس وقال : « اجل يا ابني ، فانك بالصواب حكمت ، بأنه لم يعد من المصدقين بدعوتي ، ولكن الحق أقول لك انه قد انصرف والعزاءُ يملأ فؤاده » .

وفي تلك اللحظة سمعنا اللص يغني من بعيد ، وكانت الاودية ترددُ صدى صوته الممتلىء بالمسرة والتعزية .

الطمع

رأيت في جولاني في الأرض وحشاً على جزيرة جرداء ، له رأس بشري ، وحوافر من حديد .

وكان يأكل من الأرض ، ويشرب من البحر بلا انقطاع . فوقفت أراقبه ردحاً ، ثم دنوت منه وسألته قائلا : « ألم تبلغ كفافك بعد ؟ أليس لجوعك من شبع أو لظمأك من ارتواء ؟ »

فأجابني وقال : « نعم ، نعم قد بلغت كفافي ، بل قد مللت الأكل والشرب ، ولكنني أخاف أن لا تبقى إلى غدٍ أرض لآكل منها وبحر لأرتوي من مائه » .



الذات العظمى

حدث بعد تتويج نُفسيبَعل ، ملك جبيل ، انه انصرف إلى مقصورته، وهي الغرفة التي بناها له عرافو الجبل النساك. فنزع تاجه ، وخلع « برفيره » ووقف في وسط المقصورة ، مفكراً في عظمته المتناهية ، كملك جبيل الواسع السلطان ، في ذلك الزمان .

وكان في صدر تلك المقصورة مرآة مفضضة الاطـار ، أهدتها اليه أمه ، فالتفت اليها بغتة ، واذا برجل عارٍ قـد خرج منها وتقدم اليه .

فأخذ الرعب بمجامع قلبه ، وصرخ بالرجل قائلاً : «ماذا تريد أيها الرجل ؟ »

فأجابه الرجل وقال : « أودُّ شيئاً واحداً أيها الملك ، وهو ان تخبرني لماذا توجوك ملكاً على هذه البلاد ؟ »

فقال له الملك : « قد توجوني مليكاً عليهم لأنني أنبل رجل بينهم » .

فقال له الرجل : « والله لو كنت أنبل ممـا أنت لمـــا قبلت الملك » .

فأجابه الملك : « بل انما توجوني لأنني أشدّهم بأساً وقدرة . »

فقال له الرجل : « لو كنت بالحقيقية أشدهم بأساً لما قبلت أن تكون مليكاً عليهم » .

فقال له الملك : « ألا انما توجني شعبي لأنني أوفرهم حكمة . »

فأجابه الرجل قائلاً : « والله لو كنت اوفر حكمة بما أنت الآن لما اخترتَ أن تكون ملكاً . »

فسقط الملك حينئذ على الأرض وبكى بكاءً مراً .

أما الرجل العاري فكان ينظر اليه بشفقة وحنان ، آسفاً على جهله وغروره . ثم تناول تاج الملك المتدحرج على الأرض ، ووضعه بلطف على رأسه المنحني ، وعاد فدخل في المرآة كما خرج وهو ينظر إلى الملك برقة وحسرة .

أما الملك فنهض بغتة الى المرآة ، وتأملها جيداً ، فلم ير هنالك أحداً إلاّهُ وتاجه على رأسه .

الحروب والأمم الصغيرة

كان في أحد المروج نعجة وحمل يرعيان . وكان فوقهما في الجو نسر يحوم ناظراً الى الحمل بعين جائعة يبغي افتراسه . وبينما هو يهم بالهبوط لاقتناص فريسته ، جاء نسر آخر ، وبدأ يرفرف فوق النعجة وصغيرها وفي أعماقه جشع زميله.

فتلاقيا وتقاتلا حتى ملأ صراخهما الوحشي أطراف الفضاء.

فرفعت النعجة نظرها اليهما مندهلة ، والتفتت الى حملها وقالت له : « تأمل يا ولدي ، ماأغرب قتال هذين الطائرين الكريمين ! أو ليس من العار عليهما أن يتقاتلا ، وهذا الجو الواسع كاف لكليهما ليعيشا متسالمين ؟ ولكن صل ياصغيري ، صل في قلبك الى الله ، لكي يرسل سلاماً الى أخويك المجنحين» .

فصلى الحمل من أعماق قلبه !

الناقدون

في عشية أحد الأيام ، كان المسافر راكباً حصانه وسائراً الى الساحل . فوصل في طريقه الى فندق . فترجل وربط حصانه الى شجرة أمام الباب ، لانه كان واثقاً بالليل وبالناس شأن أقرانه المسافرين الى السواحل ، ثمّ دخل الى الفندق مع الداخلين .

وعند انتصاف الليل كان جميع من في الفندق نياماً . فجاء لص وسرق حصان المسافر فلم يدر به أحد .

وفي الصباح نهض المسافر من نومه ، وجاء على الفور الى حيث ربط حصانه فلم يجده . وبعد ان فتش عنه جيداً ، عرف ان لصاً سرقه في تلك الليلة ، فتأثر كثيراً على فقد حصانه ، ولكنه حزن بالاكثر على أن بين الناس من يُغريه الشرُّ فيعمد الى السرقة .

وعندما عرف رفقاؤه المسافرون بما جرى له ، تجمعوا حواليه ، وبدأوا ينحون عليه باللائمة معنفين إياه .

فقال له الأول : « ما أحمقك أيها الرجل ! لماذا ربطت حصانك خارج الاصطبل ؟ »

ثم قال له الثاني : « انني أستغرب كيف أنك لم تحجل (تقيّد) الحصان عندما ربطته . فما أوفر جهلك ! »

فقال الثالث لرفيقيه : « ان السفر الى البحر على ظهور الخيول غباوة من أساسه . »

وقال الرابع : « أما أنا فأعتقد انه لا يقتني الخيول إلا كل بليد بطيء الخطى . »

فدهش المسافر لبلاغتهم وفصاحتهم في الوعظ والارشاد ، بعد فوات الأوان . ثم قال لهم وهو يتميز غيظاً : « أيها الأصحاب ، عندما سرق حصاني جاءتكم الفصاحة عفواً ، فأسرعتم الواحد تلو الآخر تعددون هفواتي وزلاتي ؛ ولكن يدهشني كيف انكم ، مع ما أوتيتم من قوة البيان ، لم يقل أحد منكم كلمة عن سرق الحصان ! »

الشعراء

كان أربعة من الشعراء جالسين الى خوان ، وكان على الخوان اناء من الخمر .

فقال الشاعر الأول : « يُخيّل إليّ اني أرى عبير هذا الخمر مرفرفاً في الفضاء ، كسحابة من الطيـــور في غياب مسحور . »

فرفع الشاعر الثاني رأسه وقال : « أما أنا فإني أسمع بأذني الباطنة ، هـــذه الطيور تغردُ فتأخذ ألحانها بمجامع قلبي . فتأسره كما تأسر الزنبقة النحلة بين وريقاتها . »

فأغمض الشاعر الثالث عينيه ورفع ذراعه وقال : « أمـــا أنا فاني أكاد الامسها بيدي ، وأشعر بحفيف أجنحتها يهبُّ في وجهي كأنه لهاث جنية نائمة . »

فنهض الشاعر الرابع إذ ذاك ورفع الاناء بيديه وقال : « عفوكم أيها الاخوان ! فاني ضعيف البصر ، ثقيل السمع ، كليل اللمس . فليس في طاقتي أن أرى عبير هذه الخمرة ، ولا ان أسمع غناءهـــا ، ولا ان اشعر برفرفة اجنحتها ،

أواه ! انني لا أشعر بغير الخمرة ذاتها ، ولذلك يجب أن أشربها لتوقظ حواسي الخاملة وتشعل روحي بنار بركتكم العلوية ووحيكم الطهور » .

ثم وضع اناء الخمر على شفتيه واتى على آخر نقطة فيه .

أمـــا الشعراء الثلاثة رفقاؤه ، فكانوا ينظرون اليه بدهشة ، فاتحين اشداقهم ، وفي عيونهم غُلةٌ لا تروى لهبتها وبُغضة لا تخمد حدتها .



دوّارة الريح

قالت دوّارة الريح للريح : « قبحك الله ، ما أثقلك وما أملّك ! أليس في وسعك أن تهبّي في وجه غير وجهي ، أم ، ألا تعلمين انك بعملك هذا انما تعكرين صفو ثباتي الذي أعطانيه الله ؟ »

فلم تجب الريح بكلمة قط ، ولكنها ضحكت في الفضاء .

ملك أردوسة

مَثَل شيوخ مدينة « اردوسة مرة في حضرة الملك ، والتمسوا منــه امراً يقضي بمنع المسكرات في مدينتهم .

فلم يجب الملك سؤلهم ، بل ولاهم ظهرَه وتركهم ومضى ، ضاحكاً منهم في سره .

فانصرف الشيوخ من حضرته قانطين .

ولما بلغوا باب القصر رأوا وزير الملك . وكان هذا الوزير داهية ، فلحظ اضطرابهم وعرف قصتهم .

فقال لهم : « أواه أيها الأصحاب ، فان الحظ لم يسعدكم ، لانكم لو أتيتم الينا عندمــــا يكون ملكنا سكران ، لكنتم حصلتم في الحال على ما طلبتم !

طائر ايماني

من أعماق قلبي هبّ طائر ، وصعد محلقاً في الفضاء ، وكان كلما حلق في الجو ، أكثر فأكثر ، يزداد كبراً فكبراً . فبدأ أولاً كالخطّاف ، ثم صار كالقبّرة ؛ فكالنّسر ، الى أن أصبح كسحابة الربيع اتساعاً ، فملأ السماوات المرصعة بالنجوم .

من أعماق قلبي هبّ طائر وحلق في الفضاء ، وكان يزداد حجمه كلما طار .

ومع ذلك فانه ظل ساكناً في أعماق قلبي .

●

فيا ايماني ، يا معرفتي الجامحة القديرة ،

كيف ابلغ الى سمّوك ، فأرى واياك ذات الإنسان الفضلى المرسومة على أديم السماء ؟

كيف احول هذا البحر ، الذي في أعماق نفسي ، الى ضباب كثيف ، وأهيم واياك في فضاء اللانهاية ؟

أو هل يستطيع السجين في ظلمات الهيكل أن يرى قباب الهيكل المذهبة ؟

أم هل للنواة أن تتمدد فتغلف الثمر كما كان يغلّفها من ذي قبل ؟

أجـــل . يا ايماني الحليم ! أجل ، فاني مقيد بالسلاسل الحديدية ، في غيابات هذا السجن المحدود ، تفصلني عنك هذه الحواجز المصنوعة من اللحم والعظم ، وليس لي ان أطير معك الآن الى عالم اللامحدود .

بيد انك من قلبي تنبثق محلقاً في الفضاء الوسيع ، وأنت لا تزال قاطناً في أعماق قلبي الوجيع ، وإني بذلك لراض مستسلم قنوع .

الخلافات

حدث عندما كانت ملكة « عيشانا » في فراش مخاضها ، والملك وعيون بلاطه يترقبون نجاتها من آلامها الشديدة ، وهم جالسون على أحر من الجمر في قاعة الثيران المجنحة [1] أنه دخل عليهم فجأة رسول مستعجل ، وركع عند قدمي الملك وقال : « أيها الملك المعظم ، انني أحمل اليكم بشائر الفرح ، وللملكة ، ولعبيد الملك أجمعين ؛ وذلك ان محراب «الجائر » عدوك اللدود ، ملك « البترون » ، قد قضى نحبه .»

فلما سمع الملك وكبار رجال دولته هذه البشرى نهضوا منتصبين على اقدامهم ، وهللوا فرحين . لانه لو طال أجل محراب الجبار سنة واحـــدة ، لغزا أرض « عيشانا » وقاد سكانها عبيداً الى بلاده .

وفي تلك اللحظة دخل طبيب البلاط الى قاعة الثيران المجنحة ، ودخلت وراءه قابلة الملكة . فانحنى الطبيب احتراماً للملك وقال له : « ليعشْ سيدي الملك الى الابد ، فها قد رزقك الله طفلاً ذكراً ، سيخلفك على العرش ، ويخلد حكمك على شعوب عيشانا عديد السنين ! »

فتهلل الملك ؛ وطارت روحه فرحاً ، لانه في اللحظة الواحدة ، هلك عدوه ، وتأصلت الخلافة في نسله .

وكان في مدينة « عيشانا » في ذلك العهد نبي حق ، ولكنه كان فتى جريء القلب باسل الروح .

فأمر الملك أن يحضر النبي بين يديه في تلك الليلة ، فأحضر في الحال .

فقال له الملك : « تنبأ أيها النبي ، وقل لنا كيف سيكون مستقبل ابني الذي وُلد الآن للمملكة ».

فأجابه النبي على الفور قائلاً : « اسمع أيها الملك فأنبئك الصدق عن مستقبل ابنك الذي ولد لك اليوم : فان روح عدوك ... عدوك اللدود الملك محراب . الذي مات في مساء الامس ، لم تلبث على متن الارياح سوى ليلة واحدة . وقد هبطت الى الارض ثانية تطلب جسداً تأوي اليه ، فلم ترَ أفضل من جسد ابنك هذا الذي ولد لك اليوم ، فتقمّصته » .

فاستشاط الملك غيظاً ، واستلّ سيفــه ، وقطع رأس النبي بيده والزبد يخرج من فمه غضباً .

وها قد مرت الايام ، وتصرمت حبال السنين على تلك الحادثة وحكماء « عيشانا » يسرون واحدهم للآخر قائلين : « أما قيل لنا في القدم ، وأثبتت الأيام ذلك المقول ، ان « عيشانا » يحكمها عدوها ؟ »

المعرفة ونصف المعرفة

جلس أربع ضفادع على قرمة حطب عائمة على حافة نهر كبير . فجاءت موجة هوجـاء واختطفت القرمة الى وسط النهر ، فحملتها المياه وسارت بهـا ببطء مع مجرى النهر . فرقص الضفادع فرحاً بهذه السياحة اللطيفة فوق المياه ، لانه لم يسبق لهن أن أبحرن بعيداً من ذي قبل .

وبعد هنيهة صرخت الضفدعة الأولى قائلة : « يا لها من قرمة عجيبة غريبة ؟ تأملن أيتها الرفيقات كيف تسير مثل سائر الاحياء . والله انني لم اسمع قط بمثلها ! »

فأجابتها الضفدعة الثانية وقالت : « ان هذه القرمة لا تمشي ، ولا تتحرك ايتها الصديقة ، وهي ليست عجيبة غريبة كما توهمتِ . ولكن ميـاه النهر ، المنحدرة بطبيعتها الى البحر ، تحمل هـذه القرمة معها ، وتحملنا نحـن أيضاً بانحدارها . »

فقالت الضفدعة الثالثة : « لا لعمري فقد أخطأتما أيتها الرفيقتان في خيالكما الغريب ، فان القرمة لا تتحرك ، والنهر ايضاً لا يتحرك ، وانما الحقيقة ان فكرنا هو المتحرك فينا ،

وهو الذي يقودنا الى الاعتقاد بحركة الاجسام الجامدة . »

وتناظر الضفادع الثلاث في مـــا هو المتحرك بالحقيقة . وحمي وطيس الجدال ، وعـلا الصراخ بينهن ولم يتفقن على رأي واحد.

ثم التفتن الى الضفدعة الرابعة ، التي كانت الى تلك الساعة هادئة صامتة تصغي اليهن بانتباه واستيعاب ، وسألنها رأيها في الموضوع .

فقالت لهن : كلكن محقات أيتها الرفيقات ، ولا واحدة منكن على ضلال ! فان الحركة كائنة في القرمة ، وفي النهر وفي فكرنا في وقت واحد . »

فلم يرق لهن ذلك الكلام ، لأن كل واحـــدة منهن كانت تعتقد انها وحدها المصيبة ، وان رفيقاتها لفي ضلال مبين .

وما أغرب ما حدث بعد ذلك : — فان الضفادع الثلاث تسالمن بعد العداء وتجمعن فرمين بالضفدعة الرابعة من على القرمة الى النهر .

الصحيفة البيضاء

قالت صحيفة ورق بيضاء كالثلج : « قد بُرئت نقية طاهرة وسأظل نقية الى الابد . وانني لأوثر ان أحرق ، واتحول الى رماد أبيض ، من أن آذن للظلمة فتدنو مني ، والأقذار فتلامسني . »

فسمعت قنينة الحبر قولها وضحكت في قلبها القاتم المظلم ، ولكنها خافت ولم تدن منها .

وسمعتها الاقلام أيضاً على اختلاف الوانها ولم يقربوها قط .

وهكذا ظلت صحيفة الورق البيضاء كالثلج — نقية طاهرة — ولكن . . . فارغة .

العالم والشاعر

قالت الحية للحسون : « ما أجمل طيرانك ايها الحسون ولكن حبذا لو انك تستطيع أن تنسل الى ثقوب الأرض وأوكارها ، حيث تختلج عصارة الحياة في هدوء وسكون . »

فأجابها الحسون وقال : « أي وربي . انك واسعة المعرفة بعيدتها ، بل أنت أحكم جميع المخلوقات . ولكن ، حبذا لو انك تطيرين . »

فقالت الحية كأنها لم تسمع شيئاً : « مُسكين أنت أيها الحسون ، فانك لا تستطيع أن تبصر أسرار العمق مثلي ولا تقدر أن تتخطر في خزائن المهالك الخفية ، فترى أسرارها ومحتوياتها . أما أنا فلا أبعد بك ، فقد كنت في الأمس متكئة في كهف من الياقوت الأحمر . أشبه بقلب رمـــانة ناضجة ، وأضأل الأشعة تحولها الى وردة من نور . فمن أعطي سواي في هذا العالم أن يرى مثل هذه الغرائب ؟ »

فقال لها الحسون : « بالصواب قــد حكمت أيتهــا الحكيمة ، فلا أحد إلاّكِ يستطيع أن يفترش مــا تبلور من تذكارات العصور ، وآثار الدهور . ولكن وأسفاه فانك لا تغردين . »

فقالت الحية : « انني أعرف نباتاً تمتد جذوره الى أحشاء الارض . وكل من يأكل من تلك الجذور يصير أجمل من عشتروت » .

فأجابها الحسون قائلاً : « لا أحد ، لا أحد إلاكِ قد اهتدى الى حسر القناع عن فكر الأرض السحري . ولكن واأسفاه ، فانكِ لا تطيرين . »

فقالت الحية : « وأعرف جدولاً أرجوانياً يجري تحت جبل عظيم . وكل من يشرب من هذا الجدول يصير خالداً خلود الالهة . وليس بين الطير أو الحيوان من اهتدى الى ذلك الجدول سواي . »

فأجاب الحسون وقال : « بلى والله ، فان في مناللك أن تكوني خالدة مثل الآلهة لو شئت . ولكن وا أسفاه ! فانك لا تغردين . »

فقالت الحية : « واعرف هيكلاً مطموراً تحت تراب الأرض ، لم يهتد اليه باحث أو منقب بعد ، أزوره مرةً في الشهر ، وهو من بناء جبابرة الأزمنة الغابرة . وقد نقشت على جدرانه أسرار جميع الأزمنة والأمكنة ، وكل من يقرأها ويفهمها يوازي الآلهة في العقل والمعرفة . »

فأجابها الحسون قائلاً : « بلى ، ايتها الحكيمة العزيزة . فانك لو شئت ، لاستطعت أن تكتنفي بلين جسدك جميع معارف الاجيال . ولكنك وا أسفاه لا تقدرين أن تطيري . »

فاشمأزت الحية إذ ذاك من حديثه ، وارتدت عنه الى وكرها ، وهي تبربر في ذاتها قائلة : « قبحه الله من غريد فارغ الرأس ! »

أما الحسون فطار وهو يغني بأعلى صوتـــه قائلاً : « وا أسفاه ، انك لا تغردين ! وا أسفاه ! وا أسفاه يا حكيمتي ! فانك لا تطيرين . »

الاثمان

كان رجل يحفرُ في حقله وفيما هو يحفر عثر على تمثال بديع من المرمر الجميل . فأخذه ومضى به الى رجل كان شديد الولع بالآثار والعاديات وعرضه عليه . فاشتراه منه بأبهظ الأثمان . ومضى كل منهما في سبيله .

وبينما كان البائع راجعاً إلى بيته أخذ يفكر في ذاته قائلاً : « ما أكثر ما في هذا المال من القوة والحياة ! انــــه بالحقيقة ليدهشني كيف ان رجلاً عاقلاً ينفق مالاً هذا مقداره ، لقاء صخر أصم فاقد الحركة ، كان مدفوناً في الأرض منذ الف سنة ولم يحلم به أحد ؟ »

وفي الساعة عينها ، كان المشتري يتأمل في التمثال مفكراً وقائلاً في ذاته : « تبارك ما فيك من الجمال ! تبارك ما فيك من الحياة ! حلمُ أية نفس علوية أنت ؟ هذه بالحقيقة نضارة أعطيتها من نوم ألف سنة في سكينة الأرض ! انني والله لا افهم كيف يمكن للانسان أن يبيع مثل هذه الطرفة النادرة بمال جامد زائل ؟ »

البحار الأخرى

قالت سمكة لأختها : « يوجد فوق بحرنا هذا بحر آخر ، وفيه مخلوقات متنوعة تعيش وتسبح هنالك كما نعيش نحن ههنا ونسبح .»

فأجابتها أختها وقالت : « تلك أوهام ! تلك أوهام ! ألا تعلمين أيتها العزيزة ان كل مخلوق يترك بحرنا قيد قيراط واحد ، ويبقى خارجاً عنه ، يموت في الحال ؟ اذن ، فما هي حجتك على وجود أحياء أخرى في بحار أُخرى ؟ »

التوبة

دخل رجل في ليلة ظلماء الى حديقة جاره ، فسرق اكبر بطيخة وصلت اليها يده وحملها وجاء بها الى بيته .

وعندما كسرها وجد انها عجراء لم تبلغ بعد نموها .

فتحرك ضميره في داخله اذ ذاك ، وأوسعه تأنيباً .

فندم على انه سرق البطيخة ...

المحتضر والشوحة

مهلاً ولا تلحي يا أختاه ، مهلاً
فعما قريب أترك لك هذه البقية التلفة ،
فانها تستفرغ صبرك بطول نزاعها .
انني أضن بجوعك أن يترقب تصرم هـــذه الهنيهات :
لأن هذه القيود ، وان كانت من اللهاث ، فـان كسرها
لعسير . ان رغبتي في الموت وهي أبعـــد رغائبي ، مقيدة
بسلاسل رغبتي في الحياة ، وهي أدنى رغائبي .
عفوك أيتها الرفيقة ، فانني متماهل بطيء .
هي الذكرى تمسك بروحي فتعيد اليها تذكارات مضت ،
فتريها مواكب الأيام الذاهبة ،
ومرأى شباب غابر قضيته في حلم ،
وتشخص أمامي وجهاً يأمر اجفاني بألا تغمض ،
وتعيد الى مسمعي صوتاً لا يزال صـــداه متردداً في
أذني ،
ويداً تلامس يدي ولا أراها .

●

عفوك أيتها الرفيقة فقد طال انتظارك .

ولكن ها قد دنت الساعة ، وكل شيء عـــابر زائل :
الوجه والعيون واليد ، والضباب الذي جاء بها .
ها قد حُلت العقدة ،
قد تقطّع الحبل ،
وذلك الذي ليس بالطعام ولا بالشراب قـــد تنحى
وراح .
تقدمي يا رفيقتي الجائعة ، تقدمي فقد أعدت المـائدة ،
والطعام حقيرٌ يسير ولكنه يُقدّم بمحبة .
هلمي واغرزي منقارك في جنبي الأيسر ،
واخرجي من بين قضبان قفصه هذا الطائر الأصفر ، الذي
لن يُرفرف جناحاه فيما بعد ،
بربك خذيه وحلقي به في رحاب الفضاء .
هلمي ، هلمي إليّ يا صديقتي ،
فأنا مُضيفكِ الليلة ، وأنتِ ضيفي العزيز ، فأهلاً ومرحباً.

وراء وحدتي

انّ وراء وحدتي وحدة أبعد وأقصى ،
وما انفرادي للمعتزل فيها سوى ساحة تغصُّ بالمزدحمين ،
وما سكوني للساكنين فيها سوى جلبةٍ وضجيج .
انني حدِثٌ مضطربٌ هائمٌ بعدُ ، فكيف أبلغ الى تلك الوحدة القاصية ؟

ان ألحان ذلك الوادي تتموج في أذنيّ ،
وأظلاله السوداء تحجُبُ الطريق عن عينيّ ،
فكيف أسير الى تلك الوحدة العلوية ؟
— إن وراء هذه الأودية والتلال غابة حبّ وافتتان ،
وما سكوني لمن فيها سوى عاصفة هوجاء صمّاء ،
وما افتتاني لعاشقيها سوى الخداع وغرور .
انني َحدِثٌ مضطربٌ هائمٌ بعدُ ، فكيف أبلغ تلك الغابة القدسية ؟

فإن طعم الدماء لا يزال في فمي ،
وقوس أبي ونشابه ما برحا في يدي ،

فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية ؟

– ان لي وراء هذه الذات السجينة ذاتاً حرة طليقة ،

وما احلامي في عقيدتها سوى حرب في ظلام ،

وما رغائبي تجاه رغائبها سوى قرقعة عظام ،

انني حدثٌ مهانٌ ذليل بعدُ ،
فكيف أكون ذاتي الحرّة الطليقة ؟

أجل ، كيف أكون ذاتي الحرّة الطليقة –

قبل أن أثأر لنفسي فأذبح جميع ذواتي المستعبدة ؛

أو قبل أن يصير جميع الناس أحراراً طلقاء ؟

إذْ ، كيف تطير أوراقي مترنمةً فوق الريح –
قبل أن تذوي جذوري في ظلام الأرض ؟

بل ، كيف يحلّق نسر روحي طائراً أمام وجه الشمس –

قبل أن تترك فراخي عشّها الذي بنيته لها بعرق وجهي ؟

اليقظة الاخيرة

في غلس الليل العميق ، وقد هبّ النسيم مُعطّراً بانفاس الفجر الأولى ، نهض « السابق » - وهو صدى الصوت الذي لم تسمع به اذنٌ بعد – فترك مقصورته وصعد الى سطح بيته. وبعد ان وقفَ هنالك طويلاً ينظر الى المدينة الهاجعـــة في سكينة الليل ، رفع رأسه ، وكأنما قد تجمعت حواليه أرواح أولئك النائمين المستيقظة ، فتح فاه وخاطبهم قائلاً :

« يا اخوتي وجيراني ، ويا ايها المارّون ببابي في كل يوم . انني أودّ أن أناجيكم في نومكم ، وفي وادي احلامكم ، أودّ أن أمشي مطلقاً عارياً ، فإن ساعات يقظتكم أشد غفلة من نومكم ، وآذانكم المثقلة بالضجيج كليلة صمّاء .

« لقد أحببتكم كثيراً وفوق الكثير .

« قد أحببت الواحد منكم كما لو كان كلّكم ،

« وأحببتكم جميعاً كما لو كنتم واحداً .

« ففي ربيع قلبي كنت أترنم في جنانكم ،

« وفي صيف قلبي كنت أحرس بيادركم .

« أجلْ ، قد أحببتكم جميعكم ، جباركم وصعلوككم ،

أبرصكم وصحيحكم ، وأحببت من يتلمس منكم سبيله في الظلام، كمن يرقص أيامه على الجبال والآكام.

أحببتك أيها القوي ، مع ان آثار حوافرك الحديدية لا تزال ظاهرة في لحمي ،

« وأحببتك أيها الضعيف على رغم انك جففتَ إيماني ، وعطلت علي صبري ،

« أحببتك أيها الغني ، في حين ان عسلك كان علقما في فمي ؛ وأحببتك أيها الفقير مع انك عرفت عاري وفراغ ذات يدي .

« أحببتك ايها الشاعر المقلّد ، الذي يستعير قيثارة جاره ليضرب عليها بأصابعه العمياء ، احببتك كرماً ولطفاً ، واحببتك ايها العالم الدائبُ عمره في جمع الاكفان الرثّة من حقل الخزّاف المقوت .

احببتك ايها الكاهن ، الجالس في سكون امسه متسائلاً عن مصير غدي ،

واحببتك ايها العابد الذي يتخذ له من اشباح رغائبه إلهة يعبدها .

« احببتك ايتها المرآة ، المتعطشة وكأسُها مملوءةٌ ابداً ، لأنني عرفت سرّكِ . »

وأحببتك أيتها المرأة ، الساهرة لياليها ، مشفقاً عليكِ .

« أحببتك أيها الثرثار قائلا في نفسي : « انّ الحيـــاة كثيرا فتقوله . »

وأحببتك أيها الأبكم ، قائلا في سري : « حبذا لو أسمع نُطقاً يعبر عما في صمته . »

أحببتك أيها القاضي والناقد ، ولكنكما عندما رأيتماني مصلوباً قلتما : « ما الطف نزف دمائه من عروقه ، وما أجمل الخطوط التي ترسمها في مسيلها على جلده الناصع .»

« أجل . أحببتكم جميعكم ، فتاكم وشيخكم ،

وأحببت قصبتكم المرتجفة كسنديانتكم الجبارة الراسخة .

ولكن واأسفاه ، فان قلبي الطـــافح بحبكم قد حوّل قلوبكم عني ،

لأن في وسعكم أن ترتشفوا خمرة المحبة من القدح الصغير ، ولكنكم لا تقوون على شربها من النهر الفياض . »

« انـــكم تستطيعون ان تسمعوا صوت المحبة عندما تهمس في آذانكم .

ولكنكم تصمون آذانكم عندما تصيح المحبة مهلـلة بأعلى صوتهـــا .

وعندمـــا رأيتم انني قد أحببتكم جميعكم بالسوية ، تهكمتم قائلين : ما أسهل انقياد قلبه ، وما أبعد الفطنة عن مسالكه ! ان محبته هذه محبة متسول جائع، قد تعود التقاط

الفتيات ، ولو كان جالساً الى موائد الملوك ، بل هي محبة ضعيف حقير ، لأن القوي لا يحب إلا الأقوياء » .

« وعندما رأيتم انني أحببتكم حباً مفرطاً قلتم : « ان محبته هذه محبة أعمى، لا يميز بين جمال الواحد وبشاعة الآخر بل هي محبة عديم الذوق، الذي يشرب الخل كأنه يشرب الخمر . بل انما هي محبة فضولي مدّع ، إذ أي غريب يستطيع أن يحبنا كأبينا وأمنا وأختنا وأخينا ؟ »

هذه أقوالكم وغيرها كثير . لانكم طالما أشرتم الي بأصابعكم في شوارع المدينة وساحاتها وقلتم بعضكم لبعض ساخرين :

« بربكم انظروا الصغير الكبير ، الذي لا يعبأ بالفصول والسنين ، فهو عند الظهيرة يلاعب أولادنا ، وعند المساء يجالس شيوخنا ، مدعياً الحكمة والفهم .»

أما أنا فكنت أقول في قلبي : « لا بأس في ذلك فاني سأحبهم أكثر ، نعم أكثر فأكثر . ولكني سوف أسدل على محبتي ستاراً من البغض ، واستر عطفي بشديد كرهي . وسأتبرقع ببرقع من حديد ، ولا أسعى وراءهم إلا مسلحا مدرّعاً . »

« وبعد ذلك القيت يداً ثقيلة على رضوضكم وجراحكم وكما تعصف العاصفة في الليل رعدت في آذانكم .»

« ومن على السطوح قد أذعتكم للملأ فرّيسيين ، مرائين . خدّاعين ، وفقاقيع أرض كاذبة فارغة .»

« قد لعنت قاصري النظر فيـــكم كما تلعن الخفافيش العميـــاء ،

« وشبّهت الملتصقين بالارض والأدنياء منكم بالمنـــاجذ (جمع خلد)العادمة النفوس .»

« أما الفصحاء والبلغاء بينكم فدعوتهم متشعبي الألسنة ودعوت الصامت الساكن فيكم .متحجّر القلب والشفتين ، وقلت في البسيط الساذج : « ان الأموات لا يملّون الموت .»

« قد حكمت على الساعين وراء المعرفة البشرية منكم ومن أبنائكم كمجدّفين على الروح القدس .»

« وحكمت أيضاً على المأخوذين والمجذوبين بحب الارواح وما وراء الطبيعة كمصطادي اشباح ، يرمون شباكهم في مياه راكدة ، ولا يصطادون سوى أظلالهم البليدة .»

« كذا شهّرتكم بشفتي ، ولكن قلبي ، والدماء تنزف منه فكان يدعوكم بأرق الأسماء وأحلاها .»

« أجل ، ايها الاصحـــاب والجيران ، فان المحبة قد خاطبتكم مسوقة بسياط ذاتها ،

والكبرياء قد رقصت أمامكم متعفرة بغبار خيبتهـــ مذبوحة بآلامها ؛

وتعطّشي لمحبتكم قد ثار ثائره على السطوح ؟ »
« ولكن محبتي كانت تسألكم صفحاً وهي راكعة صامتة »
ولكن اليكم المعجزة يا قوم !
« ان تستري قد فتح عيونكم، وبغضي قد أيقظ قلوبكم »
والآن فأنتم تحبونني !
« انكم لا تحبون سوى السيوف التي تطعن قلوبكم ، والسهام التي تخرق صدوركم ؟
« لأنكم لا تتعزون إلا بجراحكم ، ولا تسكرون إلا بخمرة دمائكم . »

وكما يتجمع الفراش حول اللهيب ، ساعياً وراء حتفه ، تجتمعون انتم في كل يوم الى حديقتي ، وبوجوه مرتفعة ، وعيون شاخصة ، تراقبونني وأنا أمزق نسيج أيامكم ، فتتهامسوا فيما بينكم قائلين :

« انه يبصر بنور الله ، ويتكلم كأنبياء المتقدمين ، فيحسر القناع عن نفوسنا ، ويحطم أقفال قلوبنا ، وكما يعرف النسر مسالك الثعالب ، يعرف هو أيضاً طرقنا ومسالكنا .

« بلى ، فانني بالحقيقة أعرف طرقكم ، ولكن كما يعرف النسر طرق فراخه . وإنني بمسرة قلب ، قد كشفت لكم سري . ولكنني لحاجة بي الى قربكم ، أتظاهر بالجفاء ، وخوفاً مني على دنو قضاء محبتكم ، أقوم على حراسة سدود محبتي . »

وبعد أن فرغ السابق من كلامه ، غطى وجهه بيديـــه وبكى بكاء مراً ، لانه أدرك في قلبه ، ان المحبة المحتقرة في عريها ، لأعظم من المحبة التي تنشد الظفر فيتسترها وتنكرها وخجل اذ ذاك من ذاته .

ثم رفع رأسه بغتة ، وكأنه أفاق من نوم عميق بسط ذراعيه وقال : « ها قد ولـّى الليل ، ونحن أولاد الليل ، يجب ان نموت عندما يأتي الفجر متوكئاً على التلال ،وستبعث من رمادنا محبة أقوى من محبتنا ، – وستضحك في نورالشمس وستكون خالدة . »

فهرست